

### مقاربة منهجية في دراسة الأصوات العربية

أ. شعبان صاري زليخة - جامعة تلمسان

يقول ابن جني في تعريفه للغة: "أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"<sup>1</sup>. فالخلل لهذا التعريف يلاحظ بأنه يجمع بين عناصر معينة هي: الصوت البشري، المتكلم - المتلقي ثم التعبير المقصود وهو المعنى، فهذه العناصر ملتزمة تمثل عملية التفاهم: وهكذا تكون اللغة وسيلة للتواصل ومساعدة آليا للتفكير واللغة سجل لأفكار الشعب يرجع إليها حين يشاء ذلك وفي هذا الشأن يقول قنديرس " في أحضان المجتمع تكونت اللغة، وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم فاللغة - وهي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى - تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، وصارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات وقد دانت بنشوتها إلى وجود احتشاد اجتماعي"<sup>2</sup>.

فهو يؤكد بأن اللغة ظاهرة اجتماعية تمثل جزءا من السلوك الإنساني وهي فعل مكتسب من الإنسان وإلى الإنسان.

وهذا شأن اللغة العربية التي أدت رسالتها في الحياة على أحسن وجه، عبرت منذ العصور الأولى على حاجات مستعملها فنمت وارتقت بنموهم وارتقائهم، ولا تزال إلى يومنا هذا متسعة قادرة على التعبير عن كل جديد وحديث فهي ليست وعاءا للفكر بل هي الفكر في حد ذاته تعكس حضارة وثقافة وعادات ونشاطات المجتمع، ظلت ملبية لمتطلباته تتقدم كلما تقدم به الزمن مترجمة ابتكارات واكتشافات المجتمع.

ولقد شغلت اللغة لأهميتها اهتمام العلماء والباحثين منذ القلم إلى يومنا هذا فدرسوها وحللوها من جميع جوانبها النحوية والصرفية والدلالية والصوتية باعتبارها معجزة القرآن الكريم الذي أحدث تغييرا فكريا وحضاريا في البيئة العربية<sup>3</sup> فكان حافزا للتفكير في وضع معايير للحفاظ على النطق السليم للغة من ناحية وحصرها وجمعها من ناحية أخرى، فيسهل اكتسابها خاصة للناطقين بغير العربية

اعتنقوا الإسلام. وهكذا وصلوا إلى وضع علوم اللغة بصفة عامة، مع العلم بأن اللغة العربية مرنة وغنية من حيث رصيدها المعجمي.

ولقد حظي الجانب الصوتي باهتمام خاص لدى الدارسين القدامى على اختلاف اختصاصاتهم وتوجهاتهم العلمية منهم قراء ومنهم نخبة ومنهم علماء الأصول، فكانت الظاهرة الصوتية أساس وضع المعايير الرئيسية للنحو العربي حيث يعتبر الصوت كظاهرة فيزيولوجية معناها لهم في منهجهم المبني على الملاحظة المباشرة انطلاقاً من قصة أبي الأسود الدؤلي (68هـ) حين أراد ضبط حروف القرآن الكريم إذ قال لكتابه. "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضمنت فمي فانقط نقضه بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعته شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين"<sup>4</sup>.

منهجه في هذا العمل قائم على الملاحظة الدقيقة التي ساعدته على معانيه الظاهرة الصوتية التي كانت أساس بناء النظام القواعدي في مرحلته الأولى، فحركات الإعراب ذات وظيفة هامة في اللسان العربي أساسها الجانب الفيزيولوجي من الظاهرة الصوتية. وما هذا إلا دليل على أن الفكر العربي تنتبه منذ فترة مبكرة جداً إلى أهمية الصوت في اللغة الإنسانية.

وقد نمت هذا العلم على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ) الذي عرف بعبقريته وسعة علمه وثقافته وانعكافه على العلم وطلبه برؤية واعية ويعتبر مبتكراً لعلوم جلييلة كعلم العروض، كما كانت له معرفة بعلم الموسيقى وهو رائد المعجمات اللغوية العربية مرتباً مواد معجمه "العين" على أساس مخارج الحروف، وسم بالعين نسبة إلى أول صوت حلقي حسب الترتيب الصوتي عنده معتمداً دائماً على دقة الملاحظة وتذوق الحروف حين النطق بما فيحدد بذلك مخرج الحرف، وصل بهذا المنهج إلى وضع سلم لغوي عضوي يصعد فيه من أقصى الحلق حتى يصل إلى الشفتين<sup>5</sup>.

وقد وفق إلى حد بعيد بفضل منهجه الذي اهتمت إليه والقائم على تحليل الصوت خلال النطق لأنه أوضح في التمييز والدلالة على مخرج الحرف من الكتابة<sup>6</sup> ولهذا كله استحق الخليل بن أحمد الفراهيدي أن يكون مؤسس ورائد المدرسة الصوتية<sup>7</sup> اتبعه العديد من أتوا بعده من بنهم تلميذه سيويه

(180هـ) حيث اهتم بالدرس الصوتي فبذل جهدا ملحوظا إذ تناول الأصوات اللغوية من حيث المخارج والصفات والحالات الطارئة عليها أثناء التأليف داخل السياق اللغوي<sup>8</sup>.  
بانيا دراسته على منهج موضوعي يتركز أساسا على دقة الملاحظة وأفرد لهذه الدراسة جزءا كبيرا في كتابه "الكتاب"<sup>9</sup>.

كما نجد للأخفش كتابا في الأصوات ولان السكيت أيضا كتابا في ذلك مقلدين الخليل في منهجه. ولعل أدق منهج اتخذته الدرس الصوتي والذي أثمر بنتائج قيمة نجده عند ابن جني (392هـ) ويظهر ذلك واضحا في كتابه "سر صناعة الإعراب" حيث تناول الصوت من الناحية العضوية ومن الناحية الوظيفية. حيث بدأ منهج الخليل في التوسع حيث أدخل ابن جني منطق المقارنة في وصف وتحليل الصوت وأقر بأن الصوت الطبيعي والصوت اللغوي يشتركان في نقاط عديدة، بحيث شبه جهاز النطق عند الإنسان بتلك الآلة الموسيقية التي يستخدمها لإنتاج عدد من الأصوات الموسيقية المختلفة فيدفق في وصفه لهذا الجهاز إذ يقول "يشبه بعضهم الحلق والفم بالناي فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملسا ساذجا كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة فإذا وضع الزامر أنامله على خرق الناي المنسوفة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبهه صاحبه وكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة"<sup>10</sup>.

ويتعرض ابن سينا (429هـ) أيضا في كتابه "أسباب حدوث الحروف" إلى قضايا جوهرية تتعلق بالجانب العضوي والفيزيائي للصوت، فبالإضافة إلى دقة الملاحظة في كيفية حدوث الصوت يصفه وصفا يستمد مفهومه من المحيط الطبيعي إذ يدخل على منهج سابقه الجانب التجريبي الملموس حين يقر بأن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقه مثلا العين قد تسمع من اندفاع الهواء بقوة في الماء<sup>12</sup>. ولا بد لنا أن نمتن لهؤلاء لما بدلوه من جهود علمية أفادوا بها الدراسات اللغوية عامة واللسانية خاصة فأشاروا إلى فضل الله سبحانه وتعالى على الإنسان إذ متعه بجهاز النطق واستطاعوا بفضل منهجهم أن يرموا هذا الجهاز من الحلق إلى الشفتين بكل أجزائه، فحددوا مخارج الأصوات وميزوا بين الجمهور والمهموس والشديد والرخو منها ولذلك اتسمت هذه الدراسة العربية القديمة بالدقة والشمولية مبينة على رهافة الحس ودقة الملاحظة مع الوصف والتحليل، وقد نالت بحوث ابن جني في

بجال الدرس الصوتي إعجاب المستشرقين وعلماء اللغة الأوربيين، فجعل بعض الباحثين يذهبون إلى القول بوجود اقتباس من حضارات سابقة اتخذت هذا المنهج في دراستها اللغوية كالحضارة اليونانية والهندية ومنهم (Volers) حيث وضع بعض نقط التشابه بين جهود باتني والعلوم الصوتية العربية التي وضعها النحويون القدامى مثل الخليل. أما بروكلمان نفى وعارض هذا الرأي واعتبر وجود هذا العلم عند العرب ظاهرة جديدة مبتكرة، فكانت نظرتهم علمية صائبة فائقة في الدقة والشمولية إذ وصفوا الجهاز الصوتي كما يصفه العالم التجريبي وكشفوا على الأسرار الصوتية ولاحظوا أنها تحتاج إلى دراسة مخبرية آلية كما أقره المحدثون.

وهذا ما يمثل اختلاف منهج القدامى والمحدثين حيث أن القدامى اعتمدوا على دقة الملاحظة وتتبع الصوت في مخرجه داخل الفم أي من مصدره مجريين متذوقين له أحيانا مقارنين بأصوات أخرى أحيانا معتمدين على الملاحظة والتحليل والوصف، فصنفوها حسب مخرجها متتالية صعودا من أقصى الحلق إلى الشفتين، أما المحدثون فقد اعتمدوا في دراستهم على مخابر وأجهزة دقيقة ساعدتهم على فهم وتحليل الصوت من حيث المخرج والصفة كذلك النظر في التطور الذي يصيب الأصوات عبر الأزمنة المختلفة كما لاحظوا أن جهاز النطق يتكون ويعتمد من الرئتين وما يليها من أعضاء صعودا إلى الشفتين.

والغرض كان مشترك بين القدامى والمحدثين وهو الوصول إلى حقائق الأمور لكن الطريق إلى ذلك يختلف من عصر إلى عصر فقد كان للأقدمين وسائلهم البسيطة مبنية على الذكاء والملاحظة الدقيقة تركوا بفضلها بصماتهم على ما خلفوه من آثار ودراسات وجاء المحدثون بوسائلهم الجديدة المتطورة وحاولوا أن يصلوا إلى الحقيقة ويظهروا الباطن ويكشفوا عن الخفي منها دون أن يتمكنوا من الاستغناء عن تقليد القدامى<sup>13</sup>.

فتطور العلوم في العصر الحديث ومنها الفيزيائية والحيوية والتشريحية أدى إلى تطور الدرس اللغوي بحيث وفر في هذا المجال الكثير من المعلومات فاستطاعوا أن يفصلوا بين علمين مختلفين على الفونتيك وهو العلم الذي يعنى بالأصوات شرحا وتحليلا والثاني علم الفونولوجيا ويعنى بأثر الصوت اللغوي في تركيب الكلام نحوه وصرفه<sup>13</sup>. وبذلك يتبعون منهجا وصفيا تاريخيا تحليليا في دراسة الأصوات اللغوية. كما فصلوا وجزؤوا في تحليلهم لأصوات هذا العلم إلى فروع مختلفة: إذ ميزوا بين مراحل ثلاثة في مجال

إصدار الصوت كما أقره بلومفيلد الذي يرى بأن أصوات الكلام لها ثلاثة مراحل أو جوانب متصلة لا يمكن تصور أحدهما دون الآخر وهي:

1- جانب إصدار الأصوات **production** وهو الجانب النطقي أو الفيزيولوجي أو العضوي للأصوات ويتمثل في عملية النطق من جانب المتكلم وما تتضمنه هذه العملية من حركات أعضاء النطق.

2- جانب الانتقال أو الانتشار في الهواء **transmission** أو الجانب الأكستستيكي أو الفيزيائي ويتمثل في الموجات الصوتية المنتشرة في الهواء لحركات أعضاء النطق.

3- جانب استقبال الصوت **réception** وهو الجانب السمعي ويتمثل في تلك الذبذبات المقابلة للموجات الصوتية والتي تؤثر في طبلة أذن السامع وتعمل عملها في ميكانيكية أذنه الداخلية وفي أعصاب سمعه حتى يدرك الأصوات<sup>14</sup>.

وحين اعتمدوا على منهج تاريخي وصفي تحليلي يعتمد على التجربة والتجزئة والتفصيل كذلك على التشريح استطاعوا أن يميزوا بين هذه الفروع الثلاثة وإن ذكرها القدامى بصفة عامة غير مجرئة خاصة فيما يتعلق بالفرعين الأولين النطقي والفيزيائي أما علم الأصوات السمعي فهو أحدث علوم الأصوات على الإطلاق وهو ينقسم إلى قسمين:

1- عضوي فيزيولوجي وظيفته النظر في الذبذبات التي تستقبلها آذان السامع وفي ميكانيكية الجهاز السمعي وهذه عملية تقع في مجال علم وظائف الأعضاء.

والثاني نفسي يتركز أساسا في تأثير هذه الذبذبات ووقعها على أعضاء السمع الداخلية منها بوجه خاص ومنها ثم في مخ الإنسان حيث تترجم إلى ما تعبر عليه وهما وجهان لشيء واحد هو عملية استقبال الأصوات وهناك من العلماء من يجمع بين القسمين تحت اسم علم الأصوات النفسي مرجحا النفسي على الجانب العضوي على أساس أن العملية النفسية هي ذات الأثر الواضح في سلوك السامع عند إدراكه للأصوات<sup>16</sup>.

وقد أحدث علم الأصوات الفيزيائية ثورة في الدرس اللغوي والصوتي وذلك بتقديم وسائل جديدة لدراسة الأصوات ووصفها وقد استطاعت هذه الوسائل أن تقدم العون للدارسين في صور ثلاثة.

1- الكشف عن حقائق صوتية لم تكن معروفة لهم من قبل.

- 2- تعليل مناهج الدرس.
- 3- تأييد بعض الحقائق التي توصلوا إليها بالطرق التقليدية وتأكيد الآراء المتعلقة بهذه الحقائق<sup>17</sup>.
- ولقد سار على هذا الدرب العديد من العلماء والباحثين في اللغة أوروبيين وعرب، وقد ساعدتهم منهجهم في تأسيس المدارس اللسانية المعروفة منها الوظيفية والتوزيعية وجميعها يعتمد أساسا على الدراسة الصوتية.
- فمثلا استنبطوا القاعدة الفيزيولوجية وهي كل قاعدة تحول شكلا فنولوجيا ضمنا إلى شكل صوتي.

اصتبح ← اصطبح<sup>18</sup>.

ومما سبق سنخلص أن المحدثين أضافوا وطورا منهج القدامى في دراسة الأصوات اللغوية إذ ارتكز القدامى في دراستهم على دقة الملاحظة ووصف الصوت وتحليله في مخرجه ومقارنته بالأصوات الطبيعية فالمحدثين بالإضافة إلى ذلك أبرزوا الدراسة التاريخية مفصلين بين فروع عديدة مختلفة مستنديين إلى علوم أخرى كعلوم التشريح والفيزياء.

الهوامش:

- 1- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، ص33، ج1.
- 2- اللغة، فندريس ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ص35، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، 1950.
- 3- مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص61، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1999.
- 4- المرجع نفسه، ص62.
- 5- مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص54، دار العلم ؟؟ بيروت لبنان، ص2، 1979م.
- 6- مقدمة الصحاح أحمد عبد الغفور عطار، ص55.
- 7- اللغة ومعاجمها، د. عبد اللطيف الصوي، ص85، دمشق، دار طلاس، دط، 1986.
- 8- مباحث في اللسانيات، د أحمد حساني، ص63.
- 9- أصوات اللغة العربية، عبد الغفار أحمد هلال، ص8، القاهرة، ط2، 1996.
- 10- سر صناعة الإعراب ابن جني، تحقيق حسن هنداوي، ص9، دار العلم، دمشق، 1985.
- 11- مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص64.
- 12- أصوات اللغة العربية، غفار حامد هلال، ص10.
- 13- المنهج الصوتي للبنية العربية عبد الصبور شاهين، ص6، بيروت، لبنان، 1970.
- 14- الأصوات اللغوية إبراهيم أنيس، ص4، ط4، 1981.
- 15- علم اللغة العام، د. كمال محمد بشر، ص12، دار المعارف دمشق.
- 16- علم اللغة العام، كمال محمد بشر، ص13.
- 17- المرجع نفسه، ص13.
- 18- الصوتيات والفونولوجيا، مصطفى حركات، ص80، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1998.